(١)

اخترت الإرشادَ النفسيّ

أحيانًا لا تبحث عن مهنتك، ولكن الأقدار هي التي تدلك على طريقها وهي التي تخيرك.. فاخترت العلاج النفسيّ واختارني القدر لكي أبحر في هذا الطريق. ولأنني عرفت أن الإنسانَ مخلوقٌ رائعٌ، كما أنه معقد التركيب.. فالإنسان جسد.. وروح.. وعقل.. وقلب ومشاعر وأحاسيس.. وغرائز وميزات، وفوق كل هذا يحمل الإنسان جزء من شفافية الملائكة، كما أنه فيه شيئًا من غواية الشيطان.

فكان البحث عن الجديد هو أزمتي إلا أن الأمواج عاندت طريقي؛ فكان من أصعب الأمور عليَّ أن أنصب الأمل ولا أطوله، لكنني أعترف بأن الجديد الصادق كان هو أزمتي وهو

أيضًا محنتي، والحقيقة أنني أريد أن أمارس إنسانيتي دون خوف من القدر والظروف إذ إنه لديَّ القدرة على ترجمة المشاعر إلى واقع ملموس وأفعال مادية، فالحياة مشاركة وعطاء وهي بسيطة ومعقدة في نفس الوقت. فأحيانًا ترسم أحلامًا وتعبئ مخيلتك بأهدافٍ ومرام، ولكن الأقدار قد تحدث انعطافات كبيرة في حياتك، وقد تكره ذلك أو تراه إخفاقًا في تحقق هذه الأهداف، ولكنك تكتشف أن المهنة التي اخترتك قد أعطتك أكثر مما كنت تتوقع، وأنك حققت ما كنت تريده، هذا المعنى تحديدًا هو البداية الأولى لقصتي مع العلاج النفسيّ.

لقد بدأت كمعلمة، وكنت أول قطرية تدرس لغة شكسبير وتصورت أن الريادة في هذا المجال ستعطيني أكثر، وأن الإبحار في لغة شكسبير سيمكِّنني من أن أحقق قدرة تعليمية أفضل، ولكن بجانب تدريسي اللغة الإنجليزية كنت أيضًا أدرس الفلسفة وعلم النفس، وكأنني كنت أحاول أن أفتح حدقتي بدرجة أوسع على خبايا الحياة من حولي، ورغم أنني وطَّدت نفسي على

التدريس والتعليم؛ إلا أن دراستي الخاصة لعلم النفس والفلسفة أخذتني من لغة شكسبير إلى عالم آخر، بدأته هاوية وانتهجته إلى احتراف العلاج النفسيّ حتى أن هذه المهنة أصبحت جزءًا من حياتي ولها أولوية على ما عاداها، لدرجة أنني أصبحت أتنفس هذا العلم، وتحول الإنسان أمامي إلي كائن يحتاج إلى مجهر يوضح الخفايا والتلافيف الكامنة في الداخل، والتي تبارت العلوم الاجتماعية فيما بينها لوصفها وتحليلها وعلاج المعطوب منها.

الإنسان كائن اجتماعي - هذه حقيقة، ولكن الحقيقة الأخرى أن وجود الإنسان في جماعة ومجتمع أفرز تأثيرًا متبادلاً، حتى أن الفرد في المجتمع أصبح يحمل في خلاياه الوراثية شيئًا من سجايا مجتمعه وخصاله، كما أن هذا الفرد إذا ما تحرَّر نفسيًا واجتماعيًا على نحوٍ لا يخدش القيم العليا في الحياة، يتحول إلى إنسان رائع ومنتج.. وهذا هو الهدف الأسمى من علم العلاج النفسيّ الذي يرمي إلى تخليص الإنسان من مشاكله مع نفسه ومع الآخرين، حتى يتحرر من قيودها ويصير أكثر قدرة

على العطاء والإنتاج، ولذلك استحوذ عليَّ هذا العلم، وصرتُ أعتنقه هاوية له، شغوفة به، خاصة وأن مجتمعنا وهو في بدايات النهضة كان بحاجة إلى هذا العلم، وإلى مهنة العلاج النفسيّ لعدة اعتبارات؛ في مقدمتها أن التحول والتقدم والنهوض بمعدلات عالية يكون له في الغالب ضغوط نفسية واعتلالات خاصة، تترتب على الاحتكاك بحضارات أخرى أكثر تقدمًا، كما تترتب على الانفتاح الإعلامي والتأثير الثقافي غير المتعمَّد.. كما أن المجتمع لم تبدأ نهضته إلا وهو يعيش قيمًا اجتماعية شديدة الصراحة والخصوصية، مما يجعل معالجة بعضها محفوفًا بالمشكلات الاجتماعية الرافضة للتقيد، بدعوى أن هذا التغيير اجتراء على المثل العليا وخدش لسلامتها وتخريب لمحتواها.

ومثل هذا الواقع يدور فيه جدل إلى حدٍّ الصراع بين الأجيال، وجدل إلى حدٍّ الصراع بين القديم والحديث، وجدل إلى حدٍّ الصراع بين الحضارة والتراث، من الطبيعي أن تنجم عن هذه الثنائيات مشاكل اجتماعية يكون احتقان بعضها مسببًا لأمراض نفسية، تستوجب علاجًا نفسيًا قادرًا على الإلمام بمنشأ

الضغوط وأسباب الاضطراب؛ حتى يكون لهذا العلاج بصيرة علاجية ووقائية في آنٍ واحدٍ.. ولذلك اخترتُ العلاج النفسيّ، وربما أيضًا اخترتُ هذه المهنة بحسِّ الأم التي تسعى إلى معالجة طفلها إذا ما أصابته سخونةٌ أو ألمٌ ما، فالعلاج النفسيّ هو علاج لأمراض لا تقل خطورة عن الأمراض الجسمية، وكما أن الأم تكون حريصة على علاج أطفالها بدنيًا، فإنها يجب أن تكون قادرة على ضمان الصحة النفسيّة لهم أيضًا.

وكما قلت اختارني العلاج النفسيّ، وأخذني من أشياء كثيرة بعد أن اخترته أيضًا، وكان وراء الاختيار عدة دوافع؛ منها أن عملي كمدرسة لم يجعل مهمتي التعليمية قاصرة على التدريس والتلقين وتوصيل المعلومات ومفردات اللغة، ولكني رأيت أن العملية التعليمية تقتضي علاقة أكثر تطورًا بالطالبات خاصة في ذلك الوقت. حيث لم تكن الإدارة المدرسية تحتوي على وظيفة الأخصائية الاجتماعية أو الوظائف الأخرى القادرة على حل مشكلات الطالبات، ومن ثم وجدتني مستمعة جيدة

للعديد من مشكلات طالباتي، كما وجدتني أفكر في خلفيات هذه المشكلات وكيف تؤثر على المستوى الدراسي للطالبة، وكيف تتأثر شخصية الطالبة بمشكلاتها الاجتماعية والنفسيّة، ومن ثم أدركت أن للجانب النفسيّ أهمية قصوى في بناء الشخصية، وأن أي مجهود يُبذل في العملية التعليمية لا يأخذ في اعتباره هذا الجانب، ما هو إلا هدر وإضاعة للوقت وتشتيت للجهد، فضلاً عن ذلك فقد اكتشفت في نفسي مهارة في إقناع طالباتي بحلول رأيتها وقتئذ علاجًا لمشكلاتهن، حتى أن طالباتي صرن يشكرنني على ما أسديتُه لهن من نصائح وإرشادات نفسية غيَّرت مجرى حياتهن، ومن ثم اكتشفت أنني مرشدة نفسية أكثر من كوني معلمة، وهو ما حفزني على تأهيل الجانب العلمي لمهنة العلاج النفسيّ الذي اخترته أو واختارني من مهنة التدريس، والتي أيضًا كان عطائي بها، والنتائج الإيجابية التي أحرزتها هي الدافع الأساسيّ، ولذلك انتقلت من مرحلة الهواية في ممارسة الإرشاد والعلاج النفسيّ إلى مرحلة الدراسة والاستيعاب المنظم والالتفات إلى تفاصيل هذا العلم الهام، وحصولي على

ليسانس الفلسفة وعلم النفس من جامعة بيروت العربية لأبدأ مشوارًا جديدًا في حياتي العلمية التقليدية .

ولم يقتصر الأمر على ذلك، ولكني قرَّرت أن أحصلَ على درجة علمية إضافية، إمعانًا في التحصيل وسعيًا لتأصيل الجانب العلمي، ولإيماني أن الدراسات النفسيّة بحرٌ عميقٌ لا يجب أن يكتفي الإنسان ببعض رشفاته، بل عليه الإلمام بمحتواه العلمي والتزوُّد بالإضافات والتراكمات والاكتشافات العلمية التي تُضاف كل يوم، وعلى ذلك فإنني التحقتُ بعدة جمعيات ومؤسسات متخصصة بعلم النفس، ولها أنشطتها سواء الإقليمية أو الدولية، وللحق أقول إن تجربتي من خلال هذه المؤسسات قد زوَّدتني بكم هائل من المعارف، وأطلعتني على كم هائل من البحوث والدراسات، كما أنني من خلال المحافل والمؤتمرات التقيتُ بالعديد من الشخصيات المتخصصة في العلا ج النفسيّ، وساعدني ذلك على تكوين صورة متكاملة عن أحدث قضايا هذا العلم، وعن الفروض التي هي الآن بصدد البحث والدراسة في

جامعات العالم، ولكن هذا الجانب الأكاديمي والنظري على ثرائه لا يلغي الاعتراف بأن الممارسة العملية في العلاج النفسيّ في الولايات المتحدة ثم بقطر وفي دول أخرى تُعتبر هي الإضافة الحقيقية والمحك الأساسيّ الذي زوَّدني بالعديد من التجارب التي تحفل بها الذاكرة، حتى أن أحداث الأمس البعيد تتحول أحيانًا في المخيلة إلي وقائع حية لثراء المعاني التي تدل عليها، وهو ما رأيت أن أضعه بين دفتَيِّ هذا الكتاب؛ ليكون مساهمةً متواضعةً في هذا المجال، وسردًا لوقائعَ وممارساتٍ في العلاج النفسيّ، وتجاربَ وربما حكاياتٍ أيضًا مليئة بالمعاني والدلالات والحقائق. من ثمَّ حينما شرعتُ في تأليف هذا الكتاب عُدتُ إلى الكثير من أوراقي القديمة ويومياتي البعيدة، كما أنني أحيانًا كنت أعتصر تلافيف الذاكرة لاسترجاع واقعةٍ أو بعض تفاصيل واقعةٍ، أو رسم مكان أو زمان.

كنتُ تواقةً لمعرفة التفاصيل والمشكلات النفسيّة الخفية بأنواعها المختلفة في المجتمع الأمريكي ذو الحضارة والرُّقي

الظاهر للعيان، وهل لهذه المشكلات نسخ مُكررة في مجتمعاتنا العربية..؟ أم هناك ثمة فرق.. ولو بصور مختلفة..؟ وكيف يمكن للعلم أن يقوم بعلاج هذه المشكلات والاضطرابات النفسيّة التي تتزايد يوميًا بزيادة التعقيدات في هذا العصر.

وأتت الفرصة ليصبح الحلم حقيقة.. حين ابتُعِثتُ كطالبة لدراسة الإرشاد النفسيّ بجامعة لافيرن بلوس أنجلوس.. حينها جمعت كل ما لديَّ، وحملت حقائبي وسافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية.. وكان كل تفكيري - وأنا في الطائرة - كيف سأواجه ذلك المجتمع بكل ما يحمل من تعقيدات.. حيث إنني قادمة من ثقافة مختلفة تمامًا عن تلك الثقافة التي أنا في طريقي إليها.. علمًا بأنني ذاهبة لأعرف ما تحمله تلك الثقافات من معانٍ نفسية مخفية.. قد لا تبدو للآخرين واضحة العيان.. لذا كان في مخيلتي أنه لا بُد لي أن أتعرَّف على تلك الثقافات عن قُرب.. وأن أتصالح معها باعتبارها ثقافة قائمة بذاتها.. ولها مجتمعها..

وظروفها.. كل ذلك كان يدور بمخيلتي وتفكيري.. لا أعرف من أين أبدأ.. لأني ذاهبة بنظرة مختلفة تمامًا عن الآخرين.. بعضهم من هو ذاهب لتلقي العلاج ومنهم من هو ذاهب للعمل.. وآخر أصلاً مقيم هناك.. ومنهم من هو ذاهب لتلقي العلم.. أما أنا فقد كان يتملكني إحساسٌ آخر.. شعورٌ آخر.. رهبةٌ وشوقٌ في آن واحد.. ذلك لأن ثقافتي المحلية - والإمامي التام بها وبالظروف الموجودة في مجتمعاتنا العربية - أعلم تمامًا أنها ستساعدني على مواجهة حالات المشكلات النفسيّة إذا ما صادفتني.. أما مجتمع آخر ذو ثقافة مختلفة.. وظروف مختلفة.. لم أعشها من قبل.. تلك كانت جزءًا من مخاوفي التي أردت أن أنجحَ فيها وأزيد من مداركي ومعرفتي. وكان ذلك التحدِّي الذي قرَّرت أن أواجهَه.

وصلت إلى مطار لوس أنجلوس.. وهي بداية دخولي إلى عالم التكنولوجيا المتكاملة.. خرجت من المطار وأنا أرسل نظري إلى كل شيء حولي، محاولةً بكل ما أحمله من إحساس وشعور

أن أجعلَ بصري يخترقُ كل ما أراه؛ لأرى ما وراءه.. وربما مُلئتُ بهذا الإحساس والشعور الذي كان له الفضل في تسهيل المهمة لي بالاستمرارية والنجاح .

بدأتُ الدراسة بالجامعة.. كانت بالنسبة لي شيقة جدًا.. وكنت أنا أيضًا متلهفة.. وشغفي بها جعلني أهضم اللغة بمصطلحاتها النفسيّة المعقدة أحيانًا، وبأسرع مما توقعت.. علمًا بأنني كنت أجيد اللغة الإنجليزية.. لذلك تمكنت من قراءة أكبر عدد من المراجع النفسيّة الضخمة في وقت وجيز ، وكذلك مشاركتي الدائمة في المحاضرات .. مما لفت انتباه أساتذتي في جامعة لافيرن بلوس انجلوس- كاليفورنيا ولم تكن اللغة تشكل أيَّ عائق بالنسبة لي كبقية بعض الطلبة العرب هناك، وإنما كانت الممارسة المهنية هي التحدِّي الأساسيّ الذي واجهني. وقد انخرطتُ في التدريبات العلمية، واستطعت التغلب على مشكلة الثقافة المختلفة تمامًا عن ثقافتنا العربية..سواء من حيث العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة الأمريكية أو مساحات الحرية

للفرد داخل السياق الاجتماعي..وأكثر من ذلك فقد وجدت شرائح المجتمع الأمريكي متباينة بدرجة كبيرة جدًا.مما دفعني للتعرف على معظم تلك الشرائح؛ لكي يكون التعامل معها عن علم وليس عن ظن..

كانت الدروس الأولى التي تعلمتُها هي ضبط المشاعر، وهي من أهم صفات المعالج النفسيّ، فمهما كانت المشكلة المعروضة يجب عليه أن يتعامل معها بحيادية..كذلك المعرفة التامة بالواجبات المطلوبة منه وحدوده المهنية.. فإن سمع عن أيِّ اعتداءٍ على أيِّ طفلٍ أو مُسنٍ أو أيِّ نوعٍ من الإساءة إليهم؛ فإن القانون يوجب عليه التبليغ عن تلك الحالات. كذلك إذا أحسَّ المعالج أن العميل لديه نيَّة الانتحار أو القتل فيتوجب عليه تبليغ السلطات للتدخل، حتى لا يقع هو في المساءلة القانونية..

كانت تلك الدروس بالغة الأهمية ولهذا بدأت أمارس أخلاقيات المهنة، وأتقن مهاراتها من خلال تلك الممارسة المستمرة طوال فترة دراستي.. فقد كان من متطلبات كل «كُورسٍ»

دراسيٍّ عدد معين من ساعات العمل في مؤسسات نفسية غير هادفة للربح، قد تصل أحيانًا إلى المئات من الساعات المطلوبة..

ومن هناك بدأت مسيرة العلاج النفسيّ..

(٢)

الحالة مؤثرة

الحالات التي ترد إلى هذا المركز متباينة.. ولكنَّ أشدَّ الحالات الأولى تأثيرًا بالنسبة لي.. كانت لطالبة جامعية أتت إلى العيادة تشكو من أعراض قلق، وعدم تركيز في الدراسة، وإحساس بالخوف الدائم من كل خطوة جديدة تخطوها، تبلغ هذه الطالبة من العمر تسعة عشر عامًا، كانت تعمل لبعض الوقت كمربية لطفلة لا تتعدَّى السنتين؛ حيث كانت أم تلك الطفلة تعمل لساعاتٍ طوال خلال اليوم، مما اضطرها إلى توزيع وقت طفلتها خلال فترة عملها على عدة بيوت لصديقات لها، وأحيانًا لمربيات، وكانت هذه الطالبة من ضمن المربيات المؤقتات اللاتي يقضين مع هذه الطفلة بعض الوقت.. انتبهت الطالبة إلي جسد الطفلة، والذي ظهرت عليه بعض آثار الحروق الصغيرة

المتناثرة في أنحاء متفرقة من جسدها.. ظنت الطالبة في بادئ الأمر أن هذه الحروق نتاج لمرض جِلديٍّ.. أقلقها الأمر.. بدأت تتفحَّص.. عندها اكتشفت أن هذا النوع من الحروق لا يمت إلى الأمراض الجلدية بصلة، وقد تكون نتاجًا لجريمة متعمدة، اقترفتها أيادي إحدى المشرفات على الطفلة.

على الرغم من أنه من ضمن الشروط وأخلاقيات المهنة - مع الحالات التي ترد للمركز - المحافظة التامة على سرية المعلومات التي يبوح بها المريض، ما عدا الاعتداء سواء على الأطفال أو الكبار في السن، فأنا بدوري كمرشدة نفسية، كان لا بُد لي أن أقوم بإبلاغ المسؤولين في هذا المركز على هذه الملاحظة، حيث إن حالة الطفلة تقتضيها الضرورة الأمنية لتقصي الحقائق ومعرفة الجاني.. ومن ثم حمايتها.

بزدأ المسؤولون في لجنة حماية الطفل

(١) بمتابعة حالة هذه الطفلة.. حيث قاموا بحصر وتحديد الأشخاص الذين يرعونها خلال فترة غياب والدتها..

وانتهى التقصي إلى إثبات أن الحروق المصابة بها الطفلة كانت نتيجةً لاضطراب نفسي لإحدى السيدات اللائي كُنَّ يشرفن عليها، وتبيَّن أنها كانت تقوم بإطفاء السجائر على بعض أجزاء جسدها.. مما تسبب في هذه الحروق. كان ذلك مدعاة لأخذ الطفلة من أمها لوضعها في بيت رعاية مؤقتة لدى أسرة أخرى.

(٢) حينئذٍ بدأت أبحث عن الأسباب النفسيّة التي استدعت تلك السيدة الكبيرة في السن، والتي كانت تداوم على إيذاء الطفلة بالحرق على نحو ما ذكرت سالفًا.

كانت هذه السيدة في الحلقة الخامسة من العمر.. ولم تُرزق بأطفال.. كما أنها تعرَّضت في مرحلة مبكرة من حياتها لإيذاءات مماثلة كالتي كانت تفعلها بالطفلة سالفة الذكر، ولهذا تعبَّأت طفولتها بإحساس مضاعَف بالاضطهاد، والشعور بالدونية والحقد، حتى بلوغها هذا القدر من العمر، إلا أنها مازالت محفورة في ذاكرتها، لم تطوِهَا الأيام ولا السنون، ممَّا

أدَّى إلى تشويه نفسها من الداخل، فأسقطتها على هذه الطفلة البريئة، وفعلت بها مثل ما كان يفعل معها الآخرون، واستخدمت نفس وسيلة الإيذاء بالحرق، وكذلك حرمانها من الأطفال أشعل كراهيتها لمرحلة الطفولة، وكل ما له علاقة بتلك المرحلة، ونتيجة لهذا الإحساس بالاضطهاد، والذي تحول إلى مرضٍ نفسيٍّ، سواء ممَّا تعرَّضت له في طفولتها أو بسبب الاضطهاد الثاني الذي تولد نتيجة للحرمان من الأطفال، فضلاً عن ذلك فقد أفضى بها التشويه النفسيّ -الذي أصابها- إلى عُزلة شبه قصرية، فهي تعيش بمفردها، دون صداقات، وإحساسها بأنها تعيش على هامش المجتمع، وشعورها بالدونية، وبعدم القيمة، أدَّى إلى انسلاخها عن المجتمع والإحساس الدائم بالضغينة على كل ما هو اجتماعي وتكافلي.

شعرتُ مع هذه الحالة بأني قد وفقت، ونجحت في إنقاذ طفلة بريئة من أيدٍ مريضة شريرة.. كادت أن تفتك بها وتتسبب في تشويهها. ربما أن أمومتي هي التي كانت تحركني، خصوصًا

وأنا أعتلي أولى عتبات العلاج النفسيّ دون سابق خبرة مهنية محترفة، كما أن إحساسي بالأمومة كان سببًا آخر لإحساس آخر بالذنب.. حينما جاءتني الأم الحقيقية للطفلة وهي تبكي متهمة لي بأني كنت السبب وراء نزع طفلتها منها، وإيداعها لدار رعاية مؤقتة، وأنها لا تستطيع الابتعاد عنها، وأن النوم لن يداعب أجفانها بدون أن تكون طفلتها في أحضانها.. كان كلامها موجعًا لي حينما تخيلت نفسي مكانها.. ولكنَّ قناعتي بما فعلت وبصحة الإجراءات المهنية التي اتخذتها؛ جعلتني أواجه الأمر بعقلانية أكثر، أما مشاعر الأم وهي تبكي ابنتها التي أُخذت منها ظلت صورتها باقية في ذاكرتي، وستظل إلى الأبد، وتابعت الحالة إلى أن أُعيدت الطفلة إلى أمها، وتيقنت أنها بين أحضانها ، وأنها ستحافظ عليها، وستقوم ببعض التضحيات في سبيل البقاء مع طفلتها أطول وقت ممكن، وأن تختار من تُودِع لديه طفلتها بعناية .

(٣)

ذئاب في صورة بَشر

إن العمل في المؤسسات النفسيّة يضع أمامك التجارب الإنسانية في أسوأ صورها جاهزة، ذلك لأن الحضارة في ذروة تقدمها يكون لها إفرازات نراها نحن - الشرقيون بصفة عامة والعرب على وجه الخصوص - إفرازات بالغة الحضارة. قد توجد هذه الإفرازات في مجتمعاتنا رغم محافظتها إلا أن نسبة وجودها لا يُقارن بوجودها في المجتمعات المتقدمة.. ربما أن هذه الإفرازات موجودة في مجتمعاتنا، ولا نعلم عنها الكثير، نظرًا لتفضيل كثير من الأسر والأفراد في أبنائها خوفًا من الفضائح أو التداعيات الاجتماعية التي تقترب عليها، وأيضًا لأننا كعرب لا نحبذ مطلقًا استعراض تفاصيل العلاقات المنبوذة والمستهجنة

والمرفوضة من باب التجُّمل الاجتماعي، أو لدرء التداعيات الاجتماعية إذا ما تحدثنا عنها، خاصة وأن النسبة الضئيلة لوجودها لا تجعل منها ظاهرة بحجم وجودها في المجتمعات المتقدمة حضاريًا. ولهذا؛ كانت هذه التجربة التي خضتُها على مضض، هي العمل في مؤسسة العلاج النفسيّ للأطفال المعتدَى عليهم جنسيًا من قبل ذويهم، والتي تعني معالجة حالات الاعتداء الجنسي بين الإجرام مثل اعتداء الأب على ابنته أو الأخ على شقيقته، أو بصفة عامة أحد أفراد الأسرة على المحرمات عليه شرعًا، بصورة عدوانية جنسية تثير الاشمئزاز والسخط .

في بداية الأمر وجدت أن التجربة مقززة على نحو لا ينبغي خوضها، على الأقل لأن الخبرات التي سأخرج بها لن تعيد في مجتمعاتنا المحافظة التي قلما تشهد مثل هذه الإفرازات. ولعل سيادة الوازع الديني لدينا، واعتناقنا لفهم وشروط تربوية، تمثل أمام هذه الإفرازات سياجًا واقيًا في مجتمعاتنا. فإن حدوثها يكاد يكون ضئيلاً، خاصة وأنها وقعت، فهي إذن تستحق العقوبات

الرادعة والباترة لمثل هذه السلوكيات. ولكن العقوبات الرادعة في المجتمعات المتقدمة لا تكفي للردع؛ بل إنها تبيح مثل هذه المحظورات دون العمل على الوقاية منها؛ بل تعاملها المؤسسات النفسيّة على أنها حالات مرضية تستوجب التقويم، ولا تقتضي العقوبة، وفي ذلك الخطر الذي يجعل من معدلات هذه الإفرازات عاديًا ومتفشيًا على نحو كبير، ولذلك حينما بدأتُ ممارسة العمل على مضض في هذه المؤسسة رفعتُ لواء ضرورة سن عقوبات رادعة، تمثل وقاية قبل أن تنهمك المؤسسة في العلاج. فالوقاية في مثل هذه الحالات أكثر وجوبًا، بل ولها الأولوية، ولا تكون الوقاية إلا بوضع قوانينَ عقابيةٍ رادعةٍ، تُنقذ الضحايا من الفتيات والسيدات، وأيضًا تقويم النفوس المريضة من الرجال الذين يُقدِمون على هذه الفعلة إقدامًا حيوانيًا.

وكان رأيي هذا الذي رفعت لواءه في مقتبل عملي في هذه المؤسسة مدعاة لاتهامات من مديريها؛ بأن هذا التفكير الذي أنادي به تفكيرٌ إرهابيٌ، وكأن إحقاق الحق والشرع إرهابٌ،

أو كأن البحث عن وسائل عقابية تمنع حدوث هذه الإفرازات المقززة انتهاكٌ لما يُسمى هناك بحقوق الإنسان .

في الواقع أنني ما كنت أود الخوض في هذه التجربة؛ إلا أنني وجدتها تقفز إلى الذاكرة لفرط ما عانيته منها، ولفرط اشمئزازي الذي أصابني من الحالات التي تعاملت معها، والفتيات اللائي روَّعهن آباءٌ وأشقاءٌ، ولم يحفظوا الحُرمة؛ بل انتهكوا كل القيم والمثل. وكان في صدارة هذه الحالات حالة فتاتين شقيقتين؛ أمهما مريضة، وقد استغل الأب المريض نفسيًا مرض الأم، وكان يختلي بالفتاتين الواحدة بعد الأخرى لممارسة الجنس معهما، منذ أن كانتا في السابعة والتاسعة من عمرهما.. ولم تدرك هاتان الفتاتان ما ألم بهما لظنهما أن ما فعله الأب شيءٌ عاديٌ، فلم يقفز إلى مداركهما الغضة أن ما يفعله الأب جُرمٌ بالغُ النذالة، ولم تدرك الفتاتان شيئًا عن هذا الجُرم إلا وهما في الثالثة والرابعة عشر من عمرهما، أي بعد ما أصبحتا مراهقتين، ونمت مداركهما من خلال علاقاتهما مع صديقاتهما.. حينئذٍ؛ هرعتا

معًا إلى هذه المؤسسة، لإبلاغ مديرتها بهذا الاعتداء الغاشم الذي ظل يرتكبه الأب لمدة ست أو سبع سنوات.. فخضعت الفتاتان لجلسات علاجية لمدة شهرين، مع مجموعة الفتيات اللائي تعرضن لحوادث مماثلة، ووفقًا للنظام العلاجي المعمول به في هذه المؤسسة، كما أن الآباء الذين قاموا بهذه الاعتداءات يخضعون كذلك إلى برنامج علاجي آخر في ذات الوقت؛ بهدف التقويم والتشخيص الدقيق للحالة غير السوية التي أفضت لهم إلى هذه الفعلة النكراء. ثم بعد انتهاء البرنامجين - برنامج علاج الآباء.. وبرنامج علاج الفتيات - يتم الجمع بين كل أب وابنته لتكون جلسة نفسية مستقلة، يتم خلالها المواجهة وقياس الآثار العلاجية التي من المفترض أن تكون قد صوَّبت النفس المريضة للأب ، وعالجت آثار الاعتداء الذي تعرَّضت له الفتاة .

كانت هذه الجلسة هي أقصى المأساة وأصعب الجلسات، وكان هذا البرنامج جديرًا بسخط أيِّ إنسان؛ لأنه يتعامل بشيء

من البرود مع الحالة.. وليست هي الحالة الوحيدة، بل إن هناك العديد والعديد من القصص والحكايات التي تشمئز لها الأبدان وتعرق لها الجباه من فرط دونيتها.

وربما أن العمل في مثل هذه المؤسسة لا يترك السيكولوجي المعالج دون أن يتأثر بما يراه، فمثلاً جعلني هذا العمل أرتاب في كل شيء، ودفعني أيضًا إلى أجعل للعلاقات الخاصة فرادتها، ولكن في الوقت ذاته لا بُد من أن نأخذ في الاعتبار أن الأشقاء أو الآباء الذين يرتكبون هذه الجرائم في حق الصغيرات لديهم اختلال في التوازن النفسيّ، وأحيانًا اضطراب في التكوين البيولوجي والغُددي، إذ إن الطبيعة عادة تجعل للحرمة في العلاقات بُعدًا قائمًا وموجودًا، ولكن الخلل الذي يصيب شخصياتهم هو الذي يلغي هذا البُعد، ويطرح على مُخيلاتهم المريضة هذه العلاقات؛ فيقدمون عليها بالاستدراج الخبيث تارةً، أو بالتهديد تارةً أخرى، أو بالاغتصاب تارةً ثالثة، أو بالتخدير تارةً رابعة.

إن تفسير هذه الظواهر ربما له علاقة بالمستوى الاجتماعي، في بعض الأسر الفقيرة في المجتمعات الغربية .

إن هذه الظواهر ليست مقتصرة على الولايات المتحدة الأمريكية فحسب، وقد تكون في المجتمعات العربية بسبب الفقر وطبيعة المسكن وانخفاض المستوى الاجتماعي، أو عدم وجود قواعد للضبط الاجتماعي الأوَّلي، أو غياب دور الأم المبكر، أو حُسن النوايا الذي يجعل البعض يغض الطرف دون أن يدري أن الواقع مليئٌ بالنوازع والشهوات المريضة، ولكن؛ حينما يحدث ذلك في أمريكا فالأسباب لا بُد وأن تكون مختلفة، ومن ذلك شيوع الإباحية وعدم تحريم العلاقات المحرمة، وانتشار الرذيلة، والبث التلفزيوني الخليع، وتفشي مشهيات الجنس، وأيضًا شيوع اقتصاد الجنس.. ولكن؛ أيًا كانت الأسباب ومقتضياتها، وفي أيِّ مجتمع كان، فإن الأمر يقتضي الحذر، إذ إن هذه الجرائم - وإن كانت مقززة - إلا أنها يجب أن تكون دروسًا للأمهات على درجة الخصوص، إذ إنها لا بُد أن تكون

المجهر الذي يكتشف ما يدور بالخلد أو ما يختفي بالداخل، لأن أصحاب هذه الجرائم يمتلكون قدرةً بالغةً على إخفاء علاقاتهم الدنيئة؛ بل وكما سبق القول يستخدمون وسائل متنوعة، كما أن على الأمهات أن يثقفن طفلاتهن بالوعي والحذر والحرص، وفصل الأبناء عن البنات في غرف النوم؛ لأن التساهل قد يكون له أوخم العواقب وأكثرها بشاعة، خاصة أن الذين يقدمون على هذه الفعلة لا تقتصر أضرارهم على ضحاياهم، ولكنهم يحملون المرض ربما في جيناتهم الوراثية، فتكون أنسالهم على شاكلتهم.. أي مصابين بذات الشذوذ.. وهذه ذروة الآفة.

ومن خلال عملي، ومن الأبحاث التي اطَّلعتُ عليها بهذا الخصوص؛ فإن معظم الذين يرتكبون مثل هذه الجرائم الشنعاء تعرضوا هم أنفسهم للاغتصاب في صغرهم.

(٤)

العض..افتراس بشري

يصدر عن الطفولة ردود فعل غريبة الأطوار، كردة فعل لضغوط نفسية تترجم أفعالاً وأعراضًا وسلوكياتٍ شاذة.. فمن بين تجاربي مع العلاج النفسيّ للأطفال عن طريق العلاج باللعب، تجربة عن طفلة كانت تبلغ من العمر ست سنوات، كانت تلجأ إلى العض كلما أُثيرت أو مرت بضغطٍ نفسيٍّ، يتسبب فيه أيُّ فردٍ من حولها، حتى أنها كانت تعضُّ نفسها في أماكن متفرقة من جسدها. واتضح لي - مما لاحظت من آثار لهذه العضات على جسدها- أن هذا هو سلوك الفتاه تجاه نفسها، ولم أكن أعرف لماذا كانت تلجأ إلى هذا السلوك، وما هي الدلالة من ورائه، وفي الواقع فإن العلاج باللعب يتيح تفريغ الغضبِ الطفوليِّ من خلال علاقة الطفل بالألعاب الصغيرة التي يتعامل معها..

وأيضًا من خلال مشاركة الطفل للعب مع أقرانه.. فقد لاحظتُ أن هذه الطفلة كانت تعضُّ حتى الدُّمى التي تلعب بها، كما أنها حين تتعرض لانفعال أو لمواقف ضاغطة على نفسها الصغيرة فتلجأ إلى عضِّ نفسها، وفي كثير من الأحوال تبدو شاردة للحظات، ثم تنهي لحظات التفكير بأن تعض ذراعيها أو يديها، مما يدل على أن هذا التفكير الذي انتهى بالعض كان استغراقًا ذهنيًا في موقف ضاغط، شعرت من خلاله بأنها لم تحصل على تقدير الذات، أو أنها أُهينت، أو أنها فقدت حقًا في التناوب باللعب، أو أنها تعرضت لتوبيخ أو تأنيب خلال اللعب. فكل هذه المشاعر السالبة لديها كانت تنتهي بأن تعض نفسها على نحوٍ بات لافتًا للنظر، مما شغل بالي أولاً لمحاولة تفسير أنواع المواقف التي تؤدي بها إلى هذا السلوك، وثانيًا لماذا هذا السلوك تحديدًا؛ أي لماذا اللجوء للعض وليس لأي شيء آخر، وقد اكتشفت من خلال إخضاع الحالة للملاحظة ومتابعة ردود الأفعال وربطها بالمواقف السلوكية المحيطة بهذه الطفلة، أن هذا السلوك مصدره تعرضها لقسوة منزلية من والديها، وبخاصة من أمها التي – مثلاً – كانت

تفرض عليها أن تنام القيلولة قسرًا وعلى غير رغبتها، مما كان يبعث حُنقًا وغضبًا شديدًا في ذات هذه الصغيرة.. كذلك كانت والدتها تنهرها دائمًا، وتفرض عليها سلوكًا معينًا، كما كانت تحرمها من ممارسة حقها الطفوليِّ على سجيتها، ممَّا كان يزيد من غيظها وشعورها بالإحباط والدونية، فانبرت في هذا السلوك تعض نفسها، الذي هو إسقاط لما ترغب أن تفعله بالآخرين الذين يتسببون في غيظها أو حرمانها من حقوقها كطفلة، ولهذا فإن ما يؤكد ذلك أن هذه الطفلة ما كانت تكتفي بعض نفسها لتعض بعضَ الذين حولها ممن يستطيعون أن تفعل بهم ذلك دون التعرض للعقاب الشديد، كأقرانها مثلاً أو من تشعر أنهم لن يعاقبوها إذا فعلت ذلك، حتى أنني نلت منها عضة قاسية لم أتوقعها.. فقد كانت منخرطة في اللعب بغرفة العلاج باللعب في الوقت الذي جاء فيه والدها لاصطحابها إلى المنزل، ولكنها؛ كانت تؤثر الاستمرار في اللعب، والبقاء في البيئة التي توفرها لها العيادة من ألعاب، وتتصرف على سجيتها بحرية، بالإضافة إلي السلوك العلاجي المتفهم الذي كنت أعاملها به، ولهذا رأت

أن عودتها إلى المنزل هو حرمان من هذا المناخ الودي الذي يوفر لها الراحة، ولهذا أيضًا حين طلبتُ منها مودعة أن تذهب مع والدها؛ أصبحتُ أمثل لها في هذه اللحظة والتو الشخصية المتسببة في الحرمان من هذا الجو الوُدِّي، فقابلت ذلك بغتة بعضة قاسية، حتى أنها تركت أثرًا في ذراعي، لدرجة أنني أُصبت بحُمَّى نتيجة شراسة العضة، رغم أنها طفلة صغيرة، ورغم أن البعض لا يتصور أن فكيها غير قويين؛ إلا أن تمرسها في العض جعل لديها أسنان وأنياب حادة، كما جعل فكَّيها على درجة من القوة تُحدث تهتكًا في لحم مَن تعضه.

فهذه الطفلة العضَّاضة كانت بحاجة إلى من يخلصها من هذا السلوك، الذي هو بمثابة عدوانية مبكرة، تأتي كردة فعل لعدوانية الآخرين تجاهها، ولكن؛ هناك ارتباط بين اختيارها لهذا السلوك القسري العدواني وسنها المبكرة، إذ إن نموها المطَّرد مع تعديل في السلوك يمارس بدراية وخبرة، فيمكن أن تتخلص من عدوانية العض. ولعل قصة هذه الطفلة العضاضة

تستدعي الذاكرة بما فعله الملاكم العالمي تايسون الذي اغتاظ من خصمه على حلبة الملاكمة غيظًا شديدًا، حتى أنه عض أذنه وقضمها قضمًا، مما يعني أن سلوك العض في مرجعيته الأولى مماثلٌ أو مضاهي لسلوك الافتراس الحيواني الشرس، فالحيوان مثلاً يهاجم فريسته بأنيابه ويمثل الهجوم بالأنياب ذروة الافتراس ودلالة الرغبة الشديدة في إلغاء الآخر وتصفيته.. ومن ثم فإن السلوك البشري الذي يأخذ بالعض كوسيلة عقابية للآخرين الذين يؤذونهم؛ إنما يفعلون ذلك كسلوك ارتدادي لهذا السلوك الحيواني، بهدف افتراس الآخر، لأن هذا الآخر يمثل الخطر الداهم أو الساحق الذي يقابله بالعض أي بالافتراس والإلغاء والتصفية، لأن المعضوض يتسبب للعاض في تهديد الكيان بتجاوز معنى العض، حيث يستخدم الذي يقوم بالعض هذا السلوك تعبيرًا عن رغبة في إزالة هذا التهديد.